إضاءات نقدية (مقالة محكمة)
السنة الخامسة عشرة ـ العدد الثامن والخمسون ـ صيف ١٤٠٤ش/حزيران ٢٠٢٥م

صص ٩٦ ـ ٧٧

السيميائية بين العلم والنظرية والمنهج

أمير بسطامى*
صادق عسكرى (الكاتب المسؤول)**
سيد رضا مير أحمدى***

الملخص

تُعدّ السيميائية من الحقول المعرفية الحيوية التى تهتم بدراسة العلامات والأنظمة الرمزية والإشارات الدالة فى شتى مظاهر النشاط الإنسانى. ورغم أهميتها المتزايدة، فإن موقعها فى خارطة المعرفة ما يزال مثار جدل إبستمولوجى واسع. يهدف هذا المقال إلى حسم مسألة تصنيف السيميائية وتحديد طبيعتها المعرفية، مجيباً عن إشكالية محورية: هل تُعد السيميائية علماً مستقلاً، أم مجرد نظرية، أم منهجاً نقدياً؟ ولتحقيق هذا الهدف، اعتمد البحث المنهج الوصفى التحليلى النقدى، مستنداً إلى معايير "فلسفة العلم" التى تُحدد ماهية العلوم وتميزها عن النظريات والمناهج، وذلک عبر تحليل المفاهيم الأساسية واستعراض آراء الخبراء. ومن أبرز النتائج التى توصل إليها المقال أن السيميائية تستوفى معايير "العلم" بشكل كامل، إذ تدرس موضوعاً محدداً (العلامات والدلالات) باستخدام قواعد ومبادئ دقيقة. وفى الوقت ذاته، أثبت البحث عدم وجود تعارض بين علمية السيميائية واستخدامها كـ "منهج" إجرائى لتحليل النصوص الأدبية والفنية وكشف مداليلها الخفية. كما خلصت الدراسة إلى أن النظرية – بطبيعتها المحدودة واحتياجها للإثبات – لا ترقى لمستوى شمولية العلم؛ وعليه، فإن إطلاق مصطلح "النظرية" على السيميائية بإطلاق يفتقر إلى الدقة العلمية نظراً لتعدد الاتجاهات النظرية داخل هذا الحقل، ما لم تُقيد النظرية باسم صاحبها أو موضوعها المحدد.

الكلمات الدليلية: العلم، النظرية، المنهج، السيميائية.

*. طالب دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية، جامعة سمنان، سمنان، إيران
**. أستاذ مشارک، كلية الآداب الفارسية واللغات الأجنبية، جامعة سمنان، سمنان، إيران
S_askari@semnan.ac.ir
***. أستاذ مشارک، كلية الآداب الفارسية واللغات الأجنبية، جامعة سمنان، سمنان، إيران
تاريخ الاستلام: ١٤٤٧/٠٢/٠٢ق تاريخ القبول: ١٤٤٧/٠٦/٢٩ق

المقدمة

تُعد السيميائية من الحقول المعرفية البارزة التى تُعنى بدراسة العلامات والدلالات وتحليل الأنظمة الرمزية التى تتخلل شتى مظاهر النشاط الإنسانى. فهى تدرس العلامات بوصفها أدوات للتواصل، وتسعى إلى فهم العلاقات بين الدال والمدلول فى سياقاتها المتنوعة. وتُوظَّف السيميائية فى تحليل النصوص الأدبية والفنية، وفى تفكيک الخطابات الإعلامية والسياسية، مما أكسبها حضورًا عابرًا للتخصصات.

ثم تجدر الإشارة إلى أن موقع السيميائية فى خارطة المعرفة ما يزال محلّ جدل؛ فهل هى علم مستقل يمتلک مقوماته ومنهجيته الخاصة؟ أم أنها مجرد أداة منهجية تُستخدم لتحليل المضامين فى ميادين متعددة؟ وما حدود علاقتها بالنظرية؟

يسعى هذا المقال إلى الإجابة عن هذه التساؤلات، من خلال تحليل المعايير التى يعتبر بها مجال معرفى بصفة «العلم» وتوضيح علاقته بالنظرية والمنهج، وتحليل تعددية التوصيفات فى السيميائية، كما يتجلى ذلک فى نماذج من العناوين التالية:

«علم السيمياء فى التراث العربى» (بلقاسم دفة)، الذى يعرض السيمياء كعلم له جذور تراثية مستقلة.

«علم الدلالة عند العرب» (عادل فاخورى)، الذى يسلط الضوء على التأسيس الدلالى فى التراث العربى.

«علم الدلالة: أصوله وأبعاده» (دايه فايز)، الذى يبحث فى الجذور والاتجاهات المعاصرة لهذا المجال.

«المنهج السيميائى فى تحليل النص الأدبى» (ليلى شعبان)، الذى يبرز السيميائية كمنهج نقدى.

«الأصول اللسانية والشكلانية للنظرية السيميائية» (بن مالک رشيد)، الذى يقدّم السيميائية كامتداد نظرى للاتجاهات اللسانية.

«الأصول العلمية للنظرية السيميائية (مدخل نظرى)» (قادة عقاق)، الذى يتناول السيميائية من زاوية مرجعياتها العلمية.

هذه التعددية فى الرؤية والتوصيف تدفعنا إلى مراجعة المفاهيم وإعادة ضبط

المصطلحات، للوقوف بدقة على موقع السيميائية بين العلم، والمنهج، والنظرية.

وأما الأهمية من البحث عن موقع السـيميائية بين العلم والنظرية والمنهج، فيمكننا تلخيصه بأن هذا المقال يساعد فى توضيح الجوانب المتعددة للسيميائية ويعيد النظر فى تصنيفها بين كونها علمًا أو نظرية أو مجرد منهج تحليلى فيسـاعد ذلك على تعزيز الفهم العلمى والمنهجى للسيميائية.

تعتمد المقالة منهجًا نقديا يستفيد من الوصف والتحليل، مرتكزًا على مراجع ومصادر تناولت موضوع السـيميائية بدقة وعمق. يتم تحليل المفاهيـم والمصطلحات المختلفة المرتبطة بالسيميائية، مع التركيز على الآراء الفلسفية والعلمية التى تدعم تصنيفها كعلم مسـتقل أو كمنهج. وانطلاقاً مما سبق، تتحدد إشـكالية البحث فى محاولة الإجابة عن السؤال الرئيس: ما هو الموقع المعرفى للسيميائية فى ضوء معايير فلسفة العلم؟

أسئلة البحث

يتفرع عن الإشكالية الرئيسة الأسئلةُ التالية:

١. مـا المعايير التى يصنَّف بها حقل معرفى مـا على أنه "علم"؟ وهل تنطبق هذه المعايير على السيميائية؟
٢. ما حدود العلاقة بين السـيميائية والنظرية؟ وهل يصح اختزال السيميائية فى كونها مجرد نظرية؟
٣. هل يتعارض وصف السـيميائية بـ "العلم" مع اسـتخدامها كـ "منهج" لتحليل النصوص؟

فرضيات البحث

للإجابة عن الأسئلة المطروحة، ينطلق البحث من الفرضيات التالية:

١. تمتلك السيميائية مقومات "العلم" المستقل (من حيث الموضوع والغاية)، لأنها تدرس ظاهرة محددة (العلامات) وفق قواعد دقيقة، وليسـت مجرد انطباعات عشوائية.

٢. لا يمكن اختزال السيميائية فى مفهوم "النظرية" فقط؛ لأن النظرية بطبيعتها محدودة وتحتاج إلى إثبات، بينما السيميائية حقل معرفى واسع يستوعب نظريات متعددة.

٣. لا يوجد تعارض بين علمية السيميائية ووظيفتها المنهجية؛ إذ يمكن للعلم أن ينتج أدوات إجرائية (مناهج) تُستخدم فى تحليل النصوص وتفكيک الخطاب.

الدراسات السابقة

عند تتبع الأدبيات السيميائية، نجد أن المكتبة العربية تزخر بالكتب التى تناولت السيميائية تأسيساً وتأصيلاً، مثل كتابات عادل فاخورى (علم الدلالة عند العرب)، وفيصل الأحمر (معجم السيميائيات)، ورشيد بن مالک (قاموس مصطلحات التحليل السيميائى). وعلى الرغم من كثرة هذه المؤلفات، إلا أن الدراسات التى خُصصت حصراً لمناقشة الجدلية الابستمولوجية (العلم، النظرية، المنهج) فى بحث مستقل تعد قليلة نسبياً.

ومن أبرز الدراسات التى قاربت هذا الموضوع، مقالة بعنوان "السيميائية بين الرؤية والإجرائية" لمحمد أسامة عبد الحميد. ناقشت هذه الدراسة العلاقة بين السيميائية كمنهج تحليلى وبين رؤيتها النظرية، مبرزةً تطور السيميائية من أداة نظرية إلى أداة إجرائية لتحليل الخطاب. وقد أشار الباحث فيها إلى إشكالية "تعدد المصطلحات" التى اتخذها بعضهم دليلاً لنفى علمية السيميائية. ونحن نرى فى هذا الصدد أن المعيار الرئيس فى علمية حقل ما لا يكمن فى توحيد المصطلحات فحسب -إذ إن المصطلحات تستقر بعد نضج العلم- بل فى وجود موضوع محدد وقضايا مترابطة.

كما لا يمكن إغفال الجدل التاريخى حول هذه المسألة فى المدونة السيميائية الغربية، وتحديداً عند رولان بارث. ففى أعماله المبكرة مثل "أسطوريات"، سعى بارث لتكريس السيميائية كعلم للأنساق الثقافية، لكنه شهد تحولاً فى "لذة النص"، مما جعل البعض يرى فى ذلک تراجعاً عن "الطموح العلمى" لصالح "الممارسة التأويلية".

وانطلاقاً من هذا التراث المعرفى، تأتى هذه الدراسة لتسد فجوة بحثية محددة؛ فهى لا تكتفى بعرض الآراء، بل تحتكم إلى معايير "فلسفة العلم" حصراً للفصل فى هذه

الإشـــكالية، وتمييز ما هو "علم" عما هو "منهج" أو "نظرية" بدقة منطقية، وهو ما يميزها عن الدراسات السابقة.

العلم والنظرية والمنهج

أول مســـألة جديرة بالذكر هى تبيـــين المفردات المهمة فى البحـــث وهى: العلم، والنظرية، والمنهج. «فأما العِلْم فهو يستعمل فى المعنيين الرئيسيين؛ الأول، نفس المعرفة والإدراك والثانى، مجموع من مســـائل وأصول كلية تجمعها جهة واحدة ويطلق حديثا على العلوم الطبيعية التى تحتاج إلى تجربة ومشـــاهدة واختبار ســـواء أكانت أساسية كالكيمياء والطبيعية والفلك والرياضيـــات والنبات والحيوان والجيولوجيا أم تطبيقية كالطب والهندسة والزراعة والبيطرة وما إليها.» (إبراهيم مصطفى وآخرون، ١٩٨٥م، ٢: ٦٢٤) والمقصـــود من العلم فى العنوان الاصلى هو المعنى الثانى لإننا نبحث عن المعيار فى إعتبار مجموعة من القضايا بصفة العلم وهل يمكن تطبيق هذا المعيار على السيميائية أم لأ؟ وأمـــا النظرية فهو من (نَظَرَ) أصل صحيح أى: يرجع فروعه إلى معنى واحد وهو تأمل الشيء ومعاينته ثم يستعار ويتسع فيه والنَّظَرِيةُ : قضية تثبُتُ ببرهان. (ابن فارس، ١٩٧٩م، ٥: ٤٤٤) ورأى أو اجتهـــاد يدلى به أحد العلمـــاء ويحاول إثباته بالبراهين. (مسعود، ١٩٩٢م، ١: ٨١٠) النظرية مجموعة منسجمة من الافتراضات، القابلة للتقصى فالافتراض والانسجام والتقصى مفاهيم أساسية تُحدّد بعد النظرية.

ثم ربّما تستعمل كلمة النظرية فى الأدب العربى بمعنى دراسة لأصول الأدب وفنونه ومعايـــيره ومذاهبه عبر العصـــور والفضاءات. (علـــوش، ١٩٨٥م: ٢١٩) لكن هناك نقطة هامّة تحتاج للتأمل والتدقيق وهى التركيز على كيفية النســـبة بين العلم والنظرية وإيضاحها أنعدهما مترادفان ومتساويان فى المصاديق أم لا؟ إذا نلاحظ العلوم المختلفة فنشـــاهد أن بعضها فى بدء ظهورها كانت مسألة واحدة حدثت لعالمٍ فحاول أن يجيب عليهـــا فبدأ بتحليلها والبحث عن جزئياتها ثم رتبها ووصل الى نتائجٍ ثم بعد فترة ذلك العـــالم – أو عالم آخر– يراجع تلك التحليلات أو النتائج وينكشـــف له عدم صحتها فيقوم بالبراهين الحديثة على بطلانها ويبدو رأيه ويعلله ويثبته فنشاهد اتساع المسائل

شيئا فشيئا فتؤدى هذه الابحاث والمناقشـــات والآراء الحديثة فى مسألة واحدة إلى ظهور علم حديث لكنّها لاتثبت الـــترادف بين العلم والنظرية بل العلم أشمل وأعم من النظرية وإن كانت النظرية الواحدة مبدء ظهور العلم لأن العلم ســـاحة تضارب الآراء والنظريات وربّ مسالة واحدة تجاب بالأشـــكال المختلفة حتى المتضادة وكل إجابة له قائل به فالنظريات المختلفة تطرح فى المســـألة الواحدة وكلها تندرج تحت مسائل العلم ولانقدر أن ننحصر علما فى نظرية واحدة ومضافا على هذا رب مســـألة لاتتسع الدراسات المرتبطة بها إلى حد أن نعتبره بصفة علم حديث.

وأما المنهج فى اللغة فجاء فـــى مقاييس اللغة «هو من نَهَجَ وله أصلان متباينان _ أى يشـــتق منه كلمات لاترد إلى معنى واحد _ الأول النَّهْجُ والطّريق، ونهج لى الأمر: أوضحه. والْمَنْهَجُ: الطّريق أيضا والجمع المناهج والآخر الانقطاع مثل قوله: ضربت فلانا حتى أُنهجَ أى سقط.» (ابن فارس، ١٩٧٩م، ٥: ٣٦١) المقصود من المنهج هنا هو المعنى الأول والمنهج فى العلوم بمعنى الطريق الذى يتعامل الباحث مع المســـائل الحديثة فى العلم لكى يجيب عليها بشـــكل علمى والمنهـــج العلمى له تعريف وقواعد وإطار محددة وجاء فـــى معجم المصطلحات الأدبية فى اللغـــة والأدب: «المَنهَج (method) بِوَجهٍ عام، وسيلة مُعَدَّة تُوصِل إلى غايةٍ مُعَينة. والمنهج العلمى، خُطَّة مُنَظَّمة لعددٍ من عمليات ذِهنية أو حِسِّـــية، بُغية الوصول إلى كشفِ حقيقةٍ أو البرهنةِ عليها.» (وهبه والمهندس، ١٩٨٤م: ٣٩٣)

ويقول الدكتور صلاح قنصوه «يتميز العلم بمنهجه عن سائر صور الفاعلية الإنسانية، فهو يختص بمبادئ، ومســـلمات، ويعالج الوقائع، ويقيم الفروض التى تربط بين الوقائع بواســـطة مفهومات خاصة، لينتهى من ذلك، إذا ما تحققت الفروض، إلى صوغ القوانين والنظريات. وهو فى كل ذلك يصطنع الملاحظة والتجربة أداة له، متخذًا من الرياضيات لغة لنتائجه، كلما كان تكميم ظواهره المدروســـة ممكنًـــا ... وظيفة المنهج هى الوصف والتفسير والتنبؤ والتحكم.» (قنصوه، ١٩٨١م: ١١) سيأتى التفصيل فى بابه.

علمية السيميائية

ظهرت فى فلسفة أروبا فكرة فلسفية حديثة نتيجة عن الدراسات العلمية التى كان يتناولها العالمان الشهيران، دى سوسير العالم اللغوى وبيرس الفيلسوف فى القرن التاسع عشـــر ميلاديا انبنى من تلك النتائج العلم الحديث، المعروف فى عصرنا بالســـيميائية أو الســـيميولوجيا، والذى أفاد العلماء فى تحليلاتهم ودراساتهم العلمية فى المجالات العلمية المختصة بهم من الفن والأدب والسياسية وغيرها. هذا المقال يركز على معالجة مسألة تعرضت السيميائية لها فى مجال النقد الأدبى وهى إنكار اعتبارها بصفة علم بل اعتبارها من المناهج لا العلوم.

للإجابة عن هذه الإشـــكالية، يتطلب الأمر التدقيـــق فى المعيار الذى بموجبه تُعتبر مجموعة من المفاهيم المرتبطة بعضها ببعض علمًا. ما هو المعيار والأساس الذى يتيح لنا إدراجها ضمن قائمة العلوم؟ عندما يصل النقاش إلى البحث عن معيار العلم، لا مفر من الرجوع إلى فلسفة العلمالعلم يعتمد على المبادئ التى ثبتت صحتها بالأدلة والبراهين قبل الخوض فى مسائله وقضاياه. وليست المبادئ من جنس القضايا، بل تستند صحة الاســـتدلالات وثبوت القضايا إلى ارتكازها علـــى تلك المبادئ. كما تتمحور قضايا العلم حول موضوع واحد، وتكشف عن جانب محدد من هذا الموضوع، موضحة حُكمًا معينًا يتعلق به، كما أوضح ذلک ابن ســـينا: «إن لكل واحد من الصناعات وخصوصا النظرية مبادئ وموضوعات ومســـائل والمبادئ هى المقدمات التى منها تبرهن تلک الصناعة ولا تبرهن هى فى تلک الصناعة...و الموضوعات هى الأشياء التى إنما تبحث الصناعة عن الأحوال المنسوبة إليها، والعوارض الذاتية لها. والمسائل هى القضايا التى محمولاتهـــا عوارض ذاتية لهذا الموضوع أو لأنواعه أو عوارضه، وهى مشـــكوک فيها فيستبرأ حالها فى ذلک العلم.» (ابن سينا، ١٣٧٣ش، ١: ١٩٤)

فـــإذن المعيار فى العلم هـــو أن تجمع مجموعة من الاحـــكام والمحمولات التى هى عوارض ذاتيـــة للموضوع الواحد أو لأنواع الموضوع أو عوارضه فنشـــاهد أن هذا المناط يصدق تطبيقه على الســـيميائية لأنها تبحث فـــى العلامات والدلائل، وأحوال الدلالـــة وكيفياتها وأنواعها، فإن هذا كافٍ لنعتبرها علمًا ونُدرجها ضمن قائمة العلوم. «الســـيميائية هى العلم الذى يدرس العلامات والأنظمة الرمزية فى كل الإشـــارات

الدالة وكيفية هذه الدلالة ... فالموضوع الأساسى تدور حوله السيميائيات هو العلامة ولاشيء سواها.» (الأحمر، ٢٠١٠م: ١٨)

مضافًا إلى ذلک، هناک شواهد عديدة حتى من المتقدمين فى مجال السيميائية تؤكد أنهم كانوا يعتبرونها علمًا. ومن بين هذه الشـــواهد ما قاله دى سوسير: «يمكننا إذن أن نتصور علما يدرس حياة العلامات فى كنف الحياة الاجتماعية.» (توسان، ١٩٩٤م: ٩)

إذن، عندما انطبق معيار العلم على الســـيميائية، ثبت بشكل قاطع أنه لا شک فى جواز إدراجها ضمن قائمة العلوم. ولكن تبقى مســـألتان هامتان تســـتدعيان النقاش. أولاهما: هل يمكن، بعد إثبات تحقق معايير العلمية فيها، تصنيف الســـيميائية على أنها نظرية بدلًا من علم؟ أم أن الأفضل تصنيفها كعلم مستقل نظرًا لكونها تضم مجموعة من النظريات المختلفة والمتضادة التى يتناولها السيميائيون بالدراسة والتحليل؟ سنسعى فى العنوان التالى للإجابة على هذا التســـاؤل. وأما المسألة الثانية، فهى مكانة السيميائية فيمـــا يتعلق بالمنهجية؛ أى، هل يمكننا، بعد إثبات كونهـــا علمًا، أن نحكم بمنهجيتها فى الوقت ذاته؟ وهل هناک أى تعارض بين العلمية والمنهجية؟ ســـنناقش هذه الإشكالية لاحقًا، محاولين تقديم إجابة شافية عنها.

السميائية بين العلم والنظرية

النظرية مشتقة من "نَظَرَ"، التى تحمل معنى تأمل الشيء ومعاينته. يتسع هذا الأصل ليشمل استخدامات مختلفة، حيث تشير النظرية فى الاصطلاح إلى: قضية تُثبت ببرهان. (ابن فـــارس، ١٩٧٩م، ٥: ٤٤٤) أو رأى أو اجتهاد يطرحه أحد العلماء، ويعمل على إثباته بالبراهين. (مســـعود، ١٩٩٢م، ١: ١٨٠) النظرية ليست مجرد فكرة عابرة؛ بل هى منظومـــة فكرية تعتمد على التحليل والتبرير المنطقى لإثبات حقيقتها أو نفيها ولايخفى أن المقصـــود من النظرية ما يقصده العلماء والخبراء لأنه كثيرًا ما يســـاء فهم مصطلح "نظرية" فى الاســـتخدام العام، حيث تُختزل إلى مجرد تخمـــين أو فرضية غير مثبتة، ما يجعلها عرضة للشک والارتياب. فى المقابل، يستخدم العلماء هذا المصطلح للدلالة على منظومـــة معرفية متكاملة تقوم على قوانين مبرهنة والتفســـير المنهجى للظواهر، وتُبنى

على أســـس علمية أو تجريبية وتُستخدم فى التنبؤ والتطبيق. على سبيل المثال، يتحدث الاقتصاديون عن "نظرية البطالة"، والفيزيائيون عن "نظرية الكم"، وعلماء الأحياء عن "نظرية التطور"، وكلها نظريات تقوم على أسس علمية متينة وتفسيرات منهجية للواقع، لا على افتراضات عشـــوائية أو غير مدعومة. (روزنبرج، ٢٠١١م: ١٣٥) إلاّ أنّ هناك ســـؤالا يطرح نفســـها، وهو: ما هى العلاقة بين النظرية والعلم؟ وهل يمكن اعتبارهما مترادفين أو متساويين فى المصاديق؟ وهل يمكن لنا أن نسمى السيميائية بالنظرية؟

تظهر قيمة النظريات العلمية لا بوصفها انعكاسًا مباشرًا للواقع، بل كأطر عقلية تُبنى منطقيا للإجابة عن أســـئلة مفتوحة، وهو ما يمنحها مكانة معتبرة داخل نســـيج المعرفة العلميـــة ويعد من أبرز دلائل نضجها وكما أشـــار إليه الدكتور صلاح قنصوه فى كلامه «النظرية بحكم اشتقاقها من اليونانية تعنى التأمل (theoria) فليست إذن نتيجة مباشرة مـــن معطيات الواقع. وهى لا تنبثق من خلاء ذاتهـــا من البحث التجريبى، بل بوصفها حلولاً عقلية لمشـــكلات مثارة. كما أنها تقدم، من قبل ذلك، الأساس الذى ينبغى أن تحدد بمقتضاه الأســـئلة التى يجاب عنها. وتقترح حلولاً نظرية متفتحة نسقاً منتظماً من الوجهة المنطقية للمشكلات المطروحة من شأنه أن يجعل الوقائع العلمية وسائر العناصر والخطوات جزءاً من المعرفة العلمية المقبولة.» (قنصوه، ١٩٨١م: ٢٠١)

عند تتبع نشأة العلوم وتطورها، نلاحظ أن كثيرًا منها بدأ بمحاولة الإجابة عن مسألة محورية تشـــغل أذهان العلماء، فيلجؤون إلى التحليل والتفكيك والتأمل فى جزئيات المشـــكلة للوصول إلى نتيجة محددة. غير أن هـــذه النتائج لا تكون دائمًا نهائية؛ إذ قد يعيد العلماء النظر فيها لاحقًا، فيكتشـــفون إشكالات أو قصورًا فى البنية المنطقية التى بُنيـــت عليها، مما يدفعهم إلى إبطال النظريات الســـابقة وتقديم بدائل مدعومة ببراهين جديدة. من هذا المســـار، تتراكم النتائج تدريجياً، وتتوســـع القضايا التى تتناول تلك المسألة. وفى مرحلة معينة، تتحول هذه الجهود والمناقشات إلى فرع علمى جديد، وقد عبّر ألكس روزنبرج عن هذا التوجه الفكرى فى فلسفة العلم بقوله: «ومن الطبيعى أن يثير المفهوم البدهى للنظريات، وجهة نظر حول التقدم فى العلم على أنه تطوير نظريات جديدة تتناول النظريـــات القديمة على أنها حالات خاصـــة، أو تقريبات أولية، تقوم

النظريات الاحدث بتصحيحها وتفسيرها. وهذا المفهوم المتعلق برد النظريات الأضيق إلى النظريات الأوسع أو الأكثر أساسية، عن طريق الاستنباط، تزودنا بتطبيق جذاب للمنهج البدهى فى تفسير طبيعة التقدم العلمى.» (روزنبرج، ٢٠١١م: ١٣٧)

رغم الارتباط الوثيق بين النظرية والعلم ، إلا أن اعتبارهما مصطلحين مترادفين يعدّ خطأً شائعًا. يشير الدكتور صلاح قنصوه إلى التمييز الدقيق بين مكانة النظرية فى مقابل العلم والمنهج، موضحًا أن النظرية ليست مجرد امتداد للمنهج ولا تجسيدًا مباشرًا للعلم، بل هى تتويج لمسارهما ومحصّلة نهائية لخطوات المنهج العلمى فيقول: «تعد النظريات العلمية التتويج النهائى للمنهج العلمى، وحصاد خطواته الأخيرة. فكل ما يهدف إليه المنهج العلمى نجده دوماً فى النظرية العلمية، فهى التى تحشد الوقائع والمفاهيم والفرض والقوانين فى سياق منتظم واحد. بل إن وجودها متضمن بصورة أو بأخرى فى كل منها، وبها يقدّر دور كل من الوقائع والمفاهيم والفرض والقوانين فى تحقيق غايات المنهج العلمى، كما أن الحكم على كفاءة المنهج إنما هو حكم على كفاءة الطريقة التى أسلمت إلى النظرية. غير أن للنظرية مكانتها الخاصة من العلم ومنهجه، ففى الإطار الفكرى الصريح الذى يربط بين الوقائع والمفاهيم والفرض والقوانين، ولا يمحّص به إلا بعد تحققه بالشواهد التجريبية، ولكنها تظل فرضاً مبدئياً إذا لم يتبع لها هذا التحقق.» (قنصوه، ١٩٨١م: ٢٠٠)

الفرق الأساسى يكمن فى شمولية العلم بالنسبة إلى النظرية هو أنّ العلم أوسع نطاقًا من النظرية، إذ يشمل مجموعة من الآراء والنظريات المختلفة، حتى المتضادة منها، بينما تبقى النظرية مجرد جزء من العلم وليست مكافئة له. فقد تكون النظرية نقطة انطلاق لعلم جديد، لكنها لا تكتسب استقلالية كاملة دائمًا، إذ تظل بعض النظريات محدودة وغير قادرة على التطور لتصبح علمًا قائمًا بذاته. على العكس، يتطور العلم من خلال تضارب النظريات وتفاعلها، حيث قد تُطرح إجابات متعددة لمسألة واحدة، حتى وإن كانت متناقضة، مما يساهم فى تطوره واستمراريته. وهذا التعدد لا يعنى أن النظريات السابقة لا قيمة لها، بل يشير إلى أنها تمثّل خطوات متتالية فى سبيل الكشف عمّا يقرّب من الواقع بدرجة أكبر. ويقدّم الدكتور صلاح قنصوه تمثيلاً بليغًا لهذا التعدّد فى

النظريات، فيقول: «فليس هناك نظرية واحدة بعينها قد فصل فيها بصدد ظاهرة بعينها، بل تتعدد النظريـــات، وتتقدم بخطى متتابعة نحو أكثر التقريبـــات انطباقًا على الواقع. وصياغة نظرية جديدة لا يشبه فى نظر أنشتين، هدم كوخ حقير بناء ناطحة سحاب بدلاً منه بل هى أقرب شبهًا بحال رجل يتسلق جبلاً ويتسع مدى بصره، ويرِى آفاقاً جديدة. كلما زاد ارتفاعه، فحينئذٍ يبصر مســـالك جديدة، تصل بين البقاع المنتشـــرة فى سفح الجبل مما كان يعتذر عليه رؤيتها، لو لم يبرح هذا السفح.» (قنصوه، ١٩٨١م: ٢٠٤) يرى الدكتور صلاح قنصوه أن طرح النظريات الجديدة لا يعنى إلغاء النظريات السابقة، بل يمثل تطورًا فى الرؤية وفهمًا أعمق للمسألة. فالنظرية الجديدة تُنير جوانب كانت خفية من قبل، تمامًا كما أن الصعود إلى قمة الجبل يكشـــف آفاقًا ومسالك لم تكن مرئية من الســـفح. بهذا المعنى، تتكامل النظريات وتتعاقب لا لهدم الماضى، بل لتوسيع الإدراك وتقديم تفسير أقرب إلى الواقع.

فيظهـــر أن النظرية والعلم وإن يكونان مفهومـــين مترابطتين، لكنهما غير مترادفين. فالنظرية تمثل نقطة البداية أو أساســـاً لفهم مسألة معينة، بينما العلم هو الإطار الأوسع الذى يضـــم النظريات، ويعمل على تطويرها وتنقيحها. ومن هذا المنطلق، يجب أن نميز بين النظرية كاجتهاد فردى، والعلم كمنظومة معرفية متكاملة تتشـــكل من تفاعل هذه الاجتهادات.

فإذن السيميائية، التى برزت من أبحاث دى سوسير حول اللغة والعلامات اللفظية، تقدم نموذجاً لهذا التحـــول. لأنها مع مرور الزمن تراكمـــت النظريات والآراء حولها حتى أصبحت علماً مســـتقلاً يضم مجموعة من النظريات المختلفة، بل المتضادة أحيانا. لذلك، من الأفضل اعتبار الســـيميائية علمـــاً لا مجرد نظرية. وفضلا عن ذلك نرى أن معيـــار العلمية وفقاً لما ذكره ابن ســـينا وبعض العلماء فى فلســـفة العلم، صادق على الســـيميائية فإنها تفى بمعايير العلم، إذ: لها موضوع محدد (العلامات والدلالة) وتتناول مسائل مترابطة ومتراكمة تحتوى على منهجيات وأدوات للتحليل والاستنباط. لذلك، يجوز أن نســـميها"علم السيمياء والدلالة"، لأنها لا تقتصر على نظرية واحدة، بل تشمل مجموعة غنية من النظريات التى تخضع للنقاش والتحليل المســـتمر مثل نظرية النظم فى

اللغة عند دى سوسير، التى تؤكد على العلاقة بين الدال والمدلول ضمن نسق لغوى منتظم. ونظريات بيرس التى تقدم رؤية أوسع من خلال تصنيفه للعلامات إلى رمزية وأيقونية ومؤشرية، بما يعكس تنوع آليات التمثيل. ومنها نظريات موريس الذى قسّم أبعاد الدلالة إلى نحوى ودلالى وبراجماتى (التداولى)، موضحًا كيف تتفاعل العلامات فى السياقات المختلفة. ومن ثم، فإن السيميائية لا تقوم على نظرية واحدة بعينها، بل تتأسس على تعدد نظرى يثرى أدواتها التحليلية ويمنحها مرونة فى مقاربة الظواهر الدلالية، الأمر الذى يمنعنا أن نحسبها أو نسميها نظرية، بل يقتضى اعتبارها علمًا مستقلاً يتضمن فى داخله العديد من النظريات المتنوعة والمتكاملة.

فالنتيجة، أنه لا يجوز أن نُطلق على السيميائية مصطلح "نظرية" بشكل مطلق، لأن ذلک يخلّ بالدقة العلمية ويغفل تعدد الأطر والمقاربات التى يتضمنها هذا الحقل المعرفى. فالسيميائية ليست نظرية واحدة، بل علم مستقل يضم فى داخله طيفًا واسعًا من النظريات المتباينة. ومن ثم، فإن استخدام تعبير "نظرية السيميائية" دون تقييد يعد استخدامًا غير دقيق. والأفضل أن نربط كل نظرية باسم صاحبها وموضوعها، فنقول مثلًا: "نظرية السيميائية عند بيرس فى أنواع العلامة"، أو "نظرية دى سوسير فى النظم اللغوى". بهذا التحديد نضمن الدقة ونراعى التعدد الذى يميز هذا العلم. وللدلالة على هذا الخلل فى التسمية، يمكن أن نستعرض مثالين من عناوين بعض الأبحاث التى تُظهر هذا الإشكال بوضوح: «الأصول اللسانية والشكلانية للنظرية السيميائية» و«الأصول العلمية للنظرية السيميائية (مدخل نظرى)»

العنوان فى مقال «الأصول اللسانية والشكلانية للنظرية السيميائية» (بن مالک رشيد) يوحى بأن السيميائية تقوم على نظرية واحدة لها أصول لسانية وشكلانية محددة، فى حين أن السيميائية تشمل نظريات متعددة تختلف بحسب روادها، كدى سوسير، وبيرس، وموريس. لذا، لكان من الأدق إعادة صياغة العنوان على نحو: «الأصول اللسانية والشكلانية لبعض الاتجاهات النظرية فى السيميائية» أو تحديد مرجع النظرية على سبيل المثال: «الأصول اللسانية والشكلانية فى نظرية دى سوسير».

وكذلک عنوان «الأصول العلمية للنظرية السيميائية (مدخل نظرى)» (قادة عقاق)

يكرّر الإشكال نفسه، إذ يفترض وجود "نظرية سيميائية" موحّدة لها أصول علمية ثابتة، وهو ما يتعارض مع ما استقر عليه البحث العلمى فى تصنيف السيميائية كعلم تركيبى يحتوى على رؤى ونظريات متعدّدة. ومن الأفضل أن يصاغ العنوان بدقة أكثر، مثل: «الأسس المعرفية للتوجهات السيميائية المعاصرة».

بناءً على ما سبق، يتبين أن كلا العنوانين يحتاج إلى مراجعة علمية تأخذ فى الاعتبار التعدد النظرى فى السيميائية، وتتحاشى التعميم الذى قد يضلّل القارئ حول طبيعة هذا الحقل المعرفى المركب.

السيميائية منهج

المسألة التى قمنا بصدد تبيينها هنا تتعلق بإيضاح معيار المنهجية وبحث إمكانية تطبيقه على السيميائية. ومع ذلك، قبل الإجابة على هذه المسألة، سنقدم بعض النظريات المتعلقة بالعلم والمنهج وارتباطهما معًا، حيث يرى البعض أن العلم فى بعض الآراء يكاد يكون مرادفًا للمنهج، كما أشار الدكتور صلاح اليه بقوله «يختلف الباحثون فيما يفرق العلم عن غيره فهو عند البعض مجموعة منظمة من المعارف تدور حول موضوعات بعينها .... بينما هو عند البعض منهج وأسلوب لايختلف اصطناعه فى مجال دون آخر. لذلك يتحدد أو يعرف العلم عند الفريق الاول بمادة البحث، على حين يتحدد لدى الفريق الآخر بمنهج البحث.» (قنصوه، ١٩٨١م: ٤٤)

ويرى الدكتور صلاح قنصوه يرى أن تعريف العلم استناداً فقط إلى مادة البحث لا يعد تعريفاً كاملاً لاستغنائه عن المعامل والمختبرات كأنّه يعتقد أن العلم لايحصل عند البشر إلا فى المختبرات، وأن الاختبار والتجربة شرط لازم للحصول على أى علم وينتفى حصوله بدونها. وهذا ادعاء لايمكن لنا أن نقبله؛ لأن العلم لاينحصر فى العلوم التجريبية، بل هناك علوم أدبية وتاريخية وشبههما لا تنحصر قضاياها فى العمليات الإجرائية فى المختبرات. وفضلاً عن هذا، يجب أن يتميز مجال التعريف عن مجال الفايدة والاستخدام؛ فالتعريف يوصّف لنا ماهية الشيء وبه نعرف واصفاته ونميزه عن غيره، فتوصيف الماهية يتحقق من خلال التعريف بالمادة. أما تعريف العلم بمنهج البحث

فيتصل بالغرض أو الفائدة، وهى مرتبة تأتى لاحقاً لمرتبة معرفة نفس الشـــىء لأن فهم منهج البحث يعتمد أساسًـــا على إدراك البحث ذاته أولاً. وإذن يظهر أن كلامه التالى قد لا يخلو من الاعتراضات «لو عددنا العلم نسيجا من المعرفة فحسب، فإن عالمنا لابد أن يحتفـــظ بكل فوائد والثمار العقلية والعمليـــة للعلم الحديث حتى لو أغلقت المعامل والمختبرات أبوابها من الغد. الا أن هذا النسيج أو الشبكة المتسعة من المعلومات ليسا كاملين بالطبع، ولكنه بالنســـبة للمولعين بدلالة العلم من حيث هو شروح قد بلغ الغاية من الرضا والنجـــاح ولكن إلى متى يظل الأمر كذلک، فهذا هو الســـؤال.» (قنصوه، ١٩٨١م: ٤٥)

ســـبق أن لكل علم مبادئ، وموضوع، ومسائل، وكان من منهج العلماء قبل الشروع فى دراســـة أى علم البحثَ عن الرؤوس الثمانية، لتكون دليلاً يمكّن الباحث من السير فى العلم ببصيرة ومعرفة تشجعه على إتمامه ومنها سمة العلم، أى بيان سبب تسميته باسم ما، حيث تتضمن إشـــارة إجمالية إلى ما يقوم العلم بتفصيله وبيانه وقد يعبر عن السمة بعنوان العلم بحيث تقدم للناظر صـــورة إجمالية عما يفصله ذلک العلم ويبينه. والثانية منها: القسمة والتبويب والثالثة: الغرض أى العلة الغائية القهرية التى لإجلها دوّن العلم والرابعة: المنفعة التى يكتسبها طالب العلم من الاشتغال بهذا العلم، وهى ما يتشوق إليه الإنســـان بطبيعته، مما يدفعه إلى النشاط فى تحصيل العلم وتحمل مشقته الخامسة: بيان انتمـــاء العلم إلى أى فرع من فروع العلوم، كأن يكون من العلوم التجريبية أو النظرية، ليتمكن الطالب من طلب ما يناسبه ويليق به. السادسة: تحديد مرتبته بين العلوم، بحيث يقدم على ما يجب تقديمه ويؤخر عما يجب تأخيره. أى، هل يســـتلزم تحصيل هذا العلم مقدمات ضرورية خاصة قبل الخوض فيه؟ فإن كان كذلک، وجب تقديم تلک المقدمات قبل الشروع فى دراسة العلم ذاته. الســـابعة: معرفة واضع العلم، لتطمئن نفس المتعلم ويســـتقر قلبه تجاه مصدره ومصداقيته. الثامنة: الأنحاء التعليمية، أى الطرق والأساليب التى ذُكرت فى التعليم، لتوجيه المتعلم نحو أفضل الســـبل لفهم العلم واســـتيعابه، وهى التقسيم والتحليل والتحديد والبرهان. (النراقى، ١٩٨٥م، ١: ٢٩٥)

يبـــدو أن من عرّف العلم بالمنهج قد خلط بين الجهـــات الثمانية التى تبين للطالب

سمة العلم، مساره فى تحصيله، وكيفية التعامل معه فى التحليل والاستنباط. فقد يبدأ العلم من نظرية أو موضوع جزئى، ثم تتراكم المحمولات والأحكام المرتبطة بالموضوع أو بتفاصيله، إلى أن تصل الدراسات والنتائج إلى مستوى يعلن عن ظهور فرع علمى جديد. مثال ذلک ما حدث مع فرديناند دى سوسير، الذى بدأ بحثه حول اللغة والعلامات اللفظية، ثم وجد أن النتائج التى توصل إليها تشير إلى ولادة علم جديد. وبعدما يكتسب العلم صفة الاستقلالية، وعند ترسخ مبانيه ومسائله، يصبح مؤهلاً لأن يعتمد كمنهج فى الدراسات المتنوعة. وقد أقر الدكتور صلاح قنصوه بهذا الأمر فى حديثه.:«يتفق الباحثون جميعا على أن العلم بحث نظرى، بمعنى أنه جهد مبذول للمعرفة والفهم الذى يحيط بظواهر الطبيعة...و لكن الخلاف لايبرز الا عند من لايقنعون به كذلک بل يمدون مجاله إلى تطبيقات نتائج بحثه النظرى على كافة ميادين الحياة ....لابد لنا أن نفرق بين العلم كنشاط نوعى يقوم به نفر من العلماء وبين تطبيقاته.» (قنصوه، ١٩٨١م: ٣٨)

المنهج بشكل عام هو الطريق والوسيلة التى يتدرج بها للوصول إلى هدف معين ويتضمن مبادئ ومسلمات ويعالج الوقائع والمنهج هى المنظومة المرتبة التى يمكن عن طريق استخدام أدواة الوصول إلى نتائج منطقية، وهو يوصف الظواهر ويفسر الارتباط بينها وبين علل وجودها ويشرح لنا لماذا حدثت الظاهرة وما هى علتها؟ وكذلک عن طريقه يستطيع الباحث أن يخبر عن وقوع ما يمكن أن يحدث فى المستقبل ويخمنه ويقدر أن يقوّم الأشياء ويحكم فيها فأما المنهج الأدبى خاصة فوظيفته معالجة القضايا الأدبية والنظر فى مظاهر الإبداع الأدبى بأشكاله وتحليله. (فضل،٢٠٠٢م: ١١) وتبيين جماليات النص الادبى وتبيين كيفية دلالة الالفاظ على المعانى الأدبى وإيضاح المعانى الخفية وراء النص بشكل علمى بالبراهين المقبولة عند الخبراء فى المناهج الأدبية، فالمحور الرئيسى فى المنهج هو دوره الآلية لمعاجلة الظاهرة الأدبية، نحن نشاهد أن الغاية من تعلم السيميائية هى تحليل الاعمال الادبى لمعرفة مداليل فبهذا الاعتبار يمكن أن نعتبرها منهجا ذات أسس وقواعد معينة يمكّن الباحث من خلالها الوصول إلى الجماليات اللفظية والخفيات المعنوية وكشف الغموض عنها بشكل معلل منطقى

عرفی مقبول عند المحققين، فلذا نرى أن بعض الاساتذه حين يريد أن يعلّموا السيميائية إلى الطلاب يعبّرون عنها بالمنهج السيميائی وإن يكن المقام هو مقام التعليم وو البحث النظری. فنشـــاهد تعبيرات الدكتور صلاح فضل حين يريد أن يوضح للقراء السيميائية يقول: «يعد المنهج السيميولوجی من مناهج مابعد البنيوية.» (فضل، ٢٠٠٢م: ١٢١)

فی الواقع من يعتقد أن السيميائية منهج وليس علما هو مازال ينظر من الناحية العملية بهذا العلم كانه يقول فی نفســـه نحن نتعلم السيميائية لكی نطبق قواعده على الاعمال الادبية لكشف المداليل والمعانی الخفية عبر تحليل العلامات ودواليل معرفة عميقة صحيحة مســـتدلة لكنه غفل عن الناحية النظرية والعلمية التی هنالک تثبت القواعد المأخوذة المســـلمة فی مقام التطبيق والتطبيق القواعد الســـيميائية على النصوص يتوقف على معرفتها وإثباتها فی علم السيميائية فلذا لامنافاة بين علميتها ومنهجيتها لأن الجهة فيهما مختلفة فالسيميائية علم من جهة صدق معيار العلمية عليها وكذلک منهج من جهة آليتها.

و إليک تفصيل ماذكر من عدم تنافٍ بين المنهجية والعلمية فی السيميائية لأن الجهة فيهما تختلفان بـــل تتفاعل كل منهما فی إطار مكمل للأخرى، لأن العلمية كأســـاس معرفی فالســـيميائية تُعد علمًا لأنها تســـتوفی معايير العلم، مثل وجود موضوع محدد (العلامـــات والدلالات)، وقضايا تدور حول هذا الموضوع، إضافة إلى قواعد ومبادئ مُثبتة بالبراهين. من جهة أخرى المنهجية تكون كأداة تطبيقية فالســـيميائية تُعتبر منهجًا لأنها توفر آليـــات وأدوات تحليلية لفهم النصوص الأدبية والفنية. هذه الأدوات تعتمد على أســـس علمية لتبيين الدلالات واستكشاف العلاقات الرمزية والمعانی الخفية، مما يجعلها منهجًا عمليا قابلاً للتطبيق على نطاق واسع.

العلمية تتعلق بطبيعة الســـيميائية كإطار نظری يســـتند إلى قواعد معرفية واضحة، بينما المنهجية تتعلق بقدرتها على التطبيق العملـــی لتحليل الظواهر النصية والدلالية. اختلاف الجهتين يعنی أنهما لا تتعارضان بـــل تتكاملان. التطبيق يعتمد على الاصول العلمية والمنهجية لا تنفصل عن العلمية، بل تعتمد عليها لضمان صحة ودقة التحليلات هذا التفاعل يتيح لها الجمع بين الإطار النظری والتطبيق العملی دون أی تناقض.

و من المدهش أن هذا النقاش كان مطروحا قبل قرون فی مجال العلوم المنهجية، التی

تمتلك إطارًا علميا متكاملًا، مع إمكانية توظيفها فى خدمة علوم أخرى وقد وردت هذه الإشـــكالية ذاتها فى تعريف علم المنطق قبل قرون، حيث دار الجدل حول ما إذا كان المنطق علمًا أم مجرد أداة تحليلية للعلوم الأخرى.

يقدم المحقق الطوســـى تفسيرًا لهذه المســـألة، موضحًا أن بعض العلوم قد تُستخدم للوصول إلى علوم أخرى، وهذا لا ينفى علميتها. ويقول فى ذلك: «وقد يختلف تعريف الشـــيء باختلاف الاعتبارات، فمنها ما يكون بحسب ذاته فقط، ومنها ما يكون بحسب ذاته مقيسًـــا إلى غيره، كفعله أو فاعله أو غايته أو أى شيء آخر. فمثلًا، يمكن تعريف الكوز بأنه وعاء خزفى أو صفرى، وهو تعريف بحســـب ذاته، كما يمكن تعريفه بأنه أداة لشرب الماء، وهو تعريف بالنظر إلى وظيفته. وبالقياس إلى هذه الاعتبارات، فإن المنطق علم فى ذاته، لكنه يعد أداة بالنســـبة للعلوم الأخرى. والقول بأنه آلة للعلوم فلا يكون علمًا مـــن جملتها ليس صحيحًا، لأنه ليس أداة لجميع العلـــوم، بل لبعضها فقط، وكثير من العلوم تُعد أدوات لغيرها، مثل النحو بالنســـبة للغة، والهندسة بالنسبة لعلم الهيئة.» (الطوســـى، ١٣٧٥ش، ١: ٩) ومن هذا التحليل الذى يقدّمه المحقق الطوسى، يتّضح أن اســـتعمال علم ما كوســـيلة أو أداة لا ينفى علميته الذاتية. فالاعتبار الأداتى لا يلغى الاعتبار الذاتىً، بل يتكامل معه بحســـب جهة النظـــر والغرض المقصود. وانطلاقًا من هذا المنظور، يمكن فهم موقع الســـيميائية على نحو أوضح؛ فهى وإن اســـتُثمرت كمنهج تحليل فى مجالات متعددة كاللغة والأدب والثقافة، فإن ذلك لا يتعارض مع كونها علمًا مســـتقلًا، يتمتع بموضوع محدد، ومفاهيم متراكمة، ومنهج خاص فى دراســـة العلامات والدلالات. فالســـيميائية ليســـت مجرد أداة، بل هى علم قائم بذاته، تتجاوز وظيفتها التطبيقية لتؤسس لبنية معرفية راسخة.

النتيجة

بعد التأمل فى موقع السيميائية ضمن المنظومة المعرفية، يمكن الجزم بأن السيميائية ليســـت مجرد نظرية جزئية أو منهج نقدى لتحليل النصوص فحسب، بل هى علمٌ مستقل يمتلك مقوماته البنيوية ومعاييره المعرفية، ويســـتوفى الشروط التى تجعل من مجال ما

علمًا بالمعنى الفلسفى الدقيق. وقد أثبت المقال أن معيار العلمية كما قرره العلماء، مثل ابن سينا وغيره، يتحقق فى السيميائية بوضوح؛ فهى تدرس موضوعًا واضحًا وهو العلامات والدلالات، وتدور قضاياها حول هذا الموضوع المركزى، وتُبنى استدلالاتها على مبادئ وقواعد ثابتة تتراكم عبر الأبحاث والنقاشات المتواصلة، مما يمنحها استقلالاً مفهوميا ومنهجيا داخل الحقول المعرفية.

وقد تبين من خلال التحليل أن السيميائية علم من جهة، ومنهج من جهة أخرى، ولا تنافى بين الوصفين، لأن الجهة فى كليهما مغايرة. فعلميتها تتجلى فى بُنيتها النظرية، وفى امتلاكها لموضوع وقضايا يتمحور حوله. بينما تتجلى منهجيتها فى قابليتها للتطبيق العملى، بوصفها إطارًا تحليليا يستخدم فى تفكيك النصوص، والكشف عن أنظمة الدلالة والجماليات والمعانى العميقة. وهذا الجمع بين الجهتين يظهر تكاملاً، لا تناقضًا، بين العلم والمنهج، ويؤكد أن المنهجية لا تُنافى العلمية، بل تعتمد عليها وتُبنى فوقها. وقد وُضّح هذا المعنى بصورة جلية فى تحليلات المحقق الطوسى الذى أشار إلى أن بعض العلوم، رغم استخدامها كأداة لغيرها، تظل علومًا فى ذاتها، كعلم النحو والهندسة والمنطق. وبهذا الاعتبار، فإن السيميائية ليست مجرد آلة لتحليل النصوص، بل هى علمٌ له كيانه ومفاهيمه ونظرياته.

أما فيما يخص العلاقة بين النظرية والعلم، فقد أثبت المقال أن العلم أوسع من النظرية، وأنهما لا يعدّان مترادفين ولا متساويين فى المصاديق. فالعلم يحتوى على نظريات متعددة، وقد تكون متضادة، بينما النظرية هى مجرد وجهة نظر منهجية مؤسَّسة على تأمل وتحليل وبراهين، لكنها لا تُمثل إطار العلم بكليته. ولذلک، لا يجوز إطلاق لفظ "النظرية" على السيميائية بإطلاق، لأن هذا الاستخدام يخِلّ بالدقة العلمية ويغفل التعدد الغنى الذى يميز هذا الحقل. فالسيميائية ليست نظرية واحدة يمكن الإحالة إليها باسم عام، بل هى حقل معرفى مركّب يضم مجموعة من النظريات مثل نظرية العلامة عند بيرس، والنظام اللغوى عند دى سوسير، وأبعاد الدلالة عند موريس، وغيرهم من الخبراء والمنظرين فى السيميائية. وهذا ما يدعونا إلى ضبط المصطلحات العلمية المستخدمة فى تسمية الأبحاث والدراسات، فلا نقول "النظرية السيميائية" دون تقييد،

بل يجب النسبة الدقيقة، فنقول مثلا: "نظرية دى سوسير فى العلامة اللغوية"، أو "نظرية بيرس فى أنماط العلامات"، وهكذا.

وفى ضوء ما تقدم، يمكن تلخيص النتائج الأساسية لهذه الدراسة فى ثلاث نقاط رئيسة:

١. السيميائية علمٌ قائم بذاته، يدرس موضوعًا محددًا هو العلامة والدلالة، وتدور حولـــه مجموعة من القضايـــا والمحمولات التى تفى بمعيـــار "العلم" كما صاغه الفلاسفة، مما يجيز وصفها بأنها علم لا مجرد أداة.

٢. العلمية والمنهجية فى الســـيميائية ليســـتا متعارضتين، بل تتكاملان من جهتين مختلفتين؛ فالســـيميائية علمٌ من جهة بنيتها المفهومية والنظرية، ومنهج من جهة قابليتها للتطبيق العملى فى تحليل النصوص والخطابات.

٣. لا يصحّ إطلاق لفظ "النظرية" على السيميائية بإطلاق، لأنها لا تقوم على نسق نظرى واحد، بل تضم طيفًا من النظريات المختلفة والمتباينة، ومن ثمّ يجب عند استخدامها أن تُنسب كل نظرية إلى صاحبها وموضوعها بدقة علمية.

المصادر والمراجع

صروف، لطيفة ديب. (١٩٩٧م). *ما هو العلم؟*. دمشق: منشورات وزارة الثقافة فى الجمهورية العربية السورية.

مصطفى، إبراهيم؛ الزيات، أحمد حســـن؛ عبد القادر، حامد؛ النجار، محمد. (١٩٨٥م). *المعجم الوسيط*. الطبعة الثانية. بيروت: دار الدعوة.

ابن ســـينا، أبو على. (١٣٧٣ش). *برهان الشـــفا*. ترجمة وبحث: مهدى كرام صفرى، الطبعة الأولى. طهران: نشر مركز پژوهش.

ابن فارس، أحمد بن زكريا. (١٩٧٩م). *مقاييس اللغة*. تحقيق عبد السلام محمد هارون، الطبعة الأولى. بيروت: دار الفكر.

ابن منظور، محمد بن مكرم. (١٩٩٠م). *لســـان العرب*. تحقيق عبد الله علـــى الكبير وآخرين، الطبعة الرابعة. القاهرة: دار المعارف.

الأحمر، فيصل (٢٠١٠م). *معجم السيميائيات*. الطبعة الأولى. بيروت: المنشورات الاختلاف.

الطوسى، الخواجة نصير الدين. (١٣٧٥ش). *شرح الإشارات والتنبيهات*. الطبعة الأولى. قم: نشر البلاغة.

النراقى، محمد مهدى. (١٩٨٥م). *شـــرح إلهيات الشـــفاء*. تحقيق الدكتور مهدى محقق، الطبعة الأولى. طهران: مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامى.

بن مالك، رشيد. (١٤٢٠ق). «*الأصول اللسانية والشكلانية للنظرية السيميائية*». *مجلة اللغة والأدب*.

العدد ١٤. شعبان، صص ٨٣–١٣.
تيســـير شيخ (١٩٨١م). «*مفهوم العلم عند ابن سينا*». *مجلة التراث العربى*. أغسطس – نوفمبر. العدد ٥ و٦. صص ١٧٨–١٦٠.
توسّان، برنار. (١٩٩٤م). *ما هى السيميولوجيا؟*. الطبعة الثانية. المغرب: أفريقيا الشرق.
داسكال، مارســـيليو. (٢٠٠٩م).«*الأصول العلمية للنظرية السيميائية (مدخل نظرى)*». *مجلة المعرفة*. العدد ٤٥٦. صص ١٦–٩.
روزنبرج، أليكس. (٢٠١١م). *فلســـفة العلم: مقدمة معاصرة*. ترجمة: أحمد عبد الله السماحى، فتح الله الشيخ. مراجعة ومشاركة: نصار عبد الله، الطبعة الأولى. القاهرة: المركز القومى للترجمة.
شـــعبان، ليلى شـــيخ محمد رضوان، (د.ت). "المنهج الســـيميائى فى تحليل النص الأدبى"، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، المجلد الأول، العدد ٣٣، صص ١- ٣٠.
شعبان، شيخ محمد رضوان؛ ليلى (بدون تاريخ).«*المنهج السيميائى فى تحليل النص الأدبى*». مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية. المجلد الأول. العدد ٣٣. صص ٣٠–١.
شميل، جورج. (١٩٨٧م). *معجم الرائد*. الطبعة الثالثة. بيروت: دار العلم للملايين.
قنصوه، صلاح. (١٩٨١م). *فلسفة العلم*. القاهرة: دار المعارف.
عقاق، قادة. (٢٠٠٩م). «*الأصول العلمية للنظرية الســـيميائية (مدخل نظرى)*». مجلة الموقف الأدبى. نيسان. العدد ٤٥٦. صص ٩–١.
علوش، ســـعيد. (١٩٨٥م). *معجـــم المصطلحات الأدبية المعاصرة*. الطبعة الأولى. بيروت: المؤسســـة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
عنانى، محمد. (٢٠٠٣م). *المصطلحات الأدبية الحديثة: دراســـة ومعجم إنجليزى-عربى*. الطبعة الثالثة، مصر: لونجمان.
فاخورى، عادل. (١٩٩٤م). *علم الدلالة عند العرب: دراســـة مقارنة مع الســـيمياء الحديثة*. الطبعة الثانية. بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.
فايز، دايه. (١٤٠٢ق). «*علم الدلالة: أصوله وأبعاده*». مجلة المعرفة. ربيع الأول. العدد ٢٣٩. صص ٣٦–٥.
فضل، صلاح. (٢٠٠٢م). *مناهج النقد المعاصر*. الطبعة الأولى. القاهرة: ميريت للنشر والمعلومات.
فونايتس، س. ى. (١٤٠١ق). «*ما السيميائية؟*». مجلة المعرفة. رمضان. العدد ٢٣٤. صص٧٢–٥٢.
عبد الحميد، محمد أســـامة. (١٤٢٨ق). «*السيميائية بين الرؤية والإجرائية*». مجلة المعرفة. العدد ٥٢٨. شعبان. صص ١٦٤–١٤٩.
مسعود، جبران. (١٩٩٢م). *معجم الرائد*. الطبعة السابعة. بيروت: دار العلم للملايين.
وهبه، مجدى؛ المهندس، كامل. (١٩٨٤م). *معجم المصطلحات العربية فى اللغة والأدب*. الطبعة الثانية. بيروت: مكتبة لبنان.